دور الخط العربي في ترقية الرسم القرآني
وبيان القراءات القرآنية

الأستاذ/ علي بلعالية دومة
جامعة الشلف

إن العرب لم تكن تعرف في الغالب الكتابة حتى جاء الإسلام وكانت أول سورة من القرآن الكريم نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي سورة اقرأ، فيها التنبيه إلى القراءة والتنويه بفضل علم الكتابة والرسم والإشارة إلى أهمية القلم وعظمته، هذه السورة أي سورة العلق أول سورة نزلت وفق ترتيب النزول، يقول فيها المولى جل جلاله { **اقرأ بسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**}[1] وهي أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأي معظم المفسرين. فيها تنبيه على قيمة **القلم** وفضله، وكذا فضل علم الرسم أي الخط والكتابة لما في ذلك من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو سبحانه وتعالى، فما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا الكتب المنزلة . كما قال القرطبي رحمه الله . إلا بالكتابة. وأصل الكتابة تكون بالقلم، وهذا ما أشارت إليه السورة، والعرب تعرف القلم وقالت عنه بأنه سمي قلما لأنه يقلم. أي يقطع، كتقليم الأظافر. وقال بعض الشعراء في وصفهم للقلم:

فكأنه والحبر يخضب رأسه * شيخ لوصل خريدة يتصنع
لم لا ألاحظه بعين جلالة * وبه إلى الله الصحائف ترفع

ولما نزل القرآن عرفنا بأن القلم مخلوق من المخلوقات التي خلقها الله سبحانه وتعالى ، بل هو أول المخلوقات لما صح عن النبي (ص) أنه قال: { أول ما خلق الله القلم، فقال له أكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة }[2]. خلقه الله وأمره أن يكتب كل ما يكون في اللوح المحفوظ، ثم صيره بين أيدي ملائكته ليكتبوا به مقادير الخلق وأعمال بني آدم، ولذلك نجد بعض العلماء في ذكرهم للقلم يقولون: **الأقلام ثلاثة:** القلم الأول: الذي خلقه الله بيده وأمره أن يكتب. والقلم الثاني: أقلام الملائكة جعلها الله في أيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال. والثالث: أقلام الناس: جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم. فهو نعمة من الله عظيمة، وبدونه لم يكن دين ولم تستقم حياة البشر، فالله سبحانه وتعالى لما أمرنا بالخط والكتابة بواسطة القلم، فإنما كان ذلك منه منة علينا عظيمة، حيث علم البشرية ما لم تكن تعلم ونقلها من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فالعرب لم تكن أثناء نزول القرآن تهتم بالكتابة والخط اهتمامها بالحفظ في دواوين أشعارها وتواريخ أمجادها، كما لم يكن مجتمع الصحابة متميزا بالمعرفة الثقافية المتطورة. علما أن الكتابة من العناصر الثقافية القابلة للتطور، يؤكد صاحب جواهر الأدب هذا المعنى بقوله: (وقد كانت العرب على جهلها بالقلم وخطه، والكتاب وضبطه، تصرف إلى التواريخ جل دواعيها، وتجعل له أول حظ من مساعيها، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها، وتعتاض برقم صدورها عن رقم سطورها، كل ذلك عناية منها بأخبار أوائلها وأيام فضائلها)[3].

قريش تأخذ الخط العربي من جيرانها وتطوره

ولما كان الخط موجودا عند جيرانهم من البلدان التي كانوا على اتصال بها كاليمن والشام، لما تأثروا بهم وتحدثوا لغتهم، تعلموا منهم الكتابة، ثم استنبطوا لأنفسهم خطا خاصّا بهم عرف بالخط النبطي، اشتق منه عرب الشمال خطهم الأول، فعرف الخط الأنباري، والخط الحميري، والخط المكي

والخط المدني والكوفي والبصري أو الخط المدور، والخط المثلث وهو خط جاف مستقيم الحروف، حاد الزوايا مما أعطاه طابعا هندسيا، وقد انتشر في جميع الأقاليم الإسلامية، واستعمل بصفة خاصة في كتابة القرآن الكريم نحو خمسة قرون، إلا أنه أخذ شكلا متطورا مع بداية القرن التاسع الهجري حيث زينت نهايات حروفه بزخارف نباتية وتنوع تنوعا متعددا، فمنه الخط الكوفي المظفر ذو الحروف المترابطة. وكان الخط السائد إلى نهاية القرن الحادي عشر حيث قل استخدامه وحل محله الخط النسخي ثم خط الثلث ثم الخط الرقعي ثم الريحاني، فالديواني والطومار والتعليق. وصار فيهم الكثير ممن يكتب، بدليل أنهم كانوا يكتبون العقود والمواثيق لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وثيقة الأمان الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لسراقة، حين لاحقهم في هجرتهم إلى المدينة، والذي ضمن فيه سوار كسرى، وكتب كتَّاب الوحي القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب بعض الصحابة مصاحف قرآنية خاصة بهم، ثم كتبوا القرآن كله في جمع أبي بكر الصديق وجعلوها في الصحف التي كانت بحوزة حفصة رضي الله عنها. وبالرغم من كون الخط آنذاك لم يكن يتجاوز المستوى العادي أو كما قال عنه ابن خلدون غير محكم في الإجادة والإتقان، إضافة إلى عدم توفر أدوات الكتابة بشكل يتناسب مع عبقرية الصحابة وقدرتهم على الإبداع، إلا أنهم كتبوه فيما تيس لهم من أدوات الكتابة آنذاك، من الجلود والحجارة والعظام والخشب والعسيب، وكان تركيزهم في الغالب على الجلود لتوفرها بكثرة أو لما تتصف به من طول البقاء وخاصة الرق وهو ما يرقق من الجلود ليكتب فيه، ويؤخذ من صغار العجول والحملان والجداء والغزلان[4]، يقول القلقشندي : (وقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرق، لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ)[5]، والأديم وهو جلد أحمر مدبوغ عرف في الجاهلية[3]، فكانوا عباقرة الدهر لا عباقرة عصرهم فقط، وانظر كيف كانت

عاملتهم مع الخط معاملة خاصة تليق بمقام القرآن الكريم، إذ صنعوا فيه صنيعا ما كان لغيرهم أن يبدل فيه . كما قال الدباغ . ولو شعرة واحدة، صنيعا عجيبا يميز كلام الله من كلام البشر من ناحية الكتابة والخط، إذ نظروا إلى الخط فيه من حيث هو موضوع إدراك البصر، ونظروا إلى مداده من حيث هو مادته المحسوسة، واستعملوا في رسمهم للقرآن اللون الأسود دون غيره، وكأنهم على علم بمن سيأتي بعدهم ليدخل التحسينات على رسمهم فلا يجد بُدّا من مخالفتهم للأسود، فهم لا شك يدركون ما معنى سواد على بياض، كما أنهم يعلمون أن صورة الخط المدركة في الأذهان بيضاء، هكذا علق على ذلك أهل العلم والمعرفة بقولهم، المداد في الأبصار سوداء وفي البصيرة بيضاء، والعلاقة بين الخط واللفظ علاقة ترابط واتحاد وتلازم. فالكتابة أمر مرئي محسوس، واللفظ أمر معنوي مسموع. فعلى هذا النحو رسموا كتاب الله، وما قاموا بفعلِ خير أجمل مما قاموا به في رسمهم للقرآن الكريم بهذه الخطة، ذلك أن من أجمل صفات الخير والإحسان أن يخط المرء ببنانه عمل خير يبقى له ذكرا في الدنيا وذخرا في الدنيا والآخرة كما قال ابن البواب[6] في ذلك :

وارغب لكفك أن تخط بنانـها
خيـرا تخلفه بـدار غـــرور
فجميع فعل المرء يلــقاه غدا
عند التقاء كتابه
المنشــور

لذلك تراهم أحدثوا في الخط أمرا مخالفا لسنة العادة في طريقة الكتابة، لدرجة أن العلماء اختلفوا في مرجعيته هل هو توقيفي أي من الله ورسوله لا تجوز مخالفته، أم عادي يجوز استعماله والتصرف فيه بالوضع البشري. وإني لم أعجب باختلاف العلماء في توقيفية الرسم العثماني وعدم توقيفيته، مثلما أعجب في الكيفية التي رسمها به الصحابة والتي حيرت العقول في

إعطاء رأي واضح حول ما قاموا به هل هو وحي أم رأي. وأنا أدرس النقاش حول توقيفية الرسم القرآني ينتابني إحساس قوي بمستوى الفكر الرفيع للصحابة. لذا يمكنني القول بأن رسمهم هذا للقرآن الكريم في صورته التي تبدو بسيطة، ما هو إلا تعبير تلقائي عن ذلك الإحساس الطبيعي بالوضع الحضاري المتميز عند العرب في زمن النبوة. إذ في شكل خطوطه يعبر عن بداوة العرب وبعدهم عن الحضارة كما ذكره ابن خلدون، بينما في وضع قواعده، وإحكام شواهده، وبيان فوائده، يعبر عن الإدراك العالي والمستوى الرفيع من الإحساس بالمعاني، والذوق البياني، وقوة الحافظة، فجاء رسمهم بشكل لا يمكن لغيرهم أن يقوم به. فهو مشروع مثالي قيم، جدير بالتخليد، ولم لا؟ فإذا كانت الأجيال البشرية مهما كانت موغلة في الزمن، تحكمها نزعة طبيعية نحو تخليد أعمالها بغية تخليد رموزها ومن ثم استبقائها كعلامات دالة على عظمة مشاريعها القيمة وعلى قدرتها على تحدي الزمان ومقاومة فعل النسيان، فإن مشروع الصحابة هذا كونه يتعلق بحفظ القرآن الكريم من جانب الرسم، قد خرج عن كونه أثرا من آثار تخليد رموز الصحابة، إلى كونه ممارسة فكرية واعية، حيرت العقول بوقوف الجميع عند هذا الحد من الممارسة، ممارسة فكرية خالدة قام بها الصحابة بوسائل بسيطة، ممارسة يستخلص منها الحس الثقافي الرفيع لدى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين كَوَّنوا بذلك ثقافة إسلامية وحضارة دينية متميزة عن حضارات الفرس والروم وثقافاتهم المزعومة. ممارسة ممن لهم خبرة ربانية، وخاصة ممن كتبوا له القرآن الكريم، فجاء رسمهم مرآة تعكس لنا بحق حضارة ماضينا العريق، لكنها الحضارة في شكلها المتناهي لدرجة الإعجاز، حضارة تجعلنا نفتخر بهذا الماضي ونعتز به، فإذا نظرنا إلى ترقية الخط العربي حاليا نجد فيه تغييرا ملحوظا، وتطورا يعكس أعلى درجات

العقل العربي، مع بقاء عمل الصحابة هذا هو نفسه كما كان عليه أو تقريبا في زمن النبوة، وهو نفسه في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه.

دور الخط العربي في دلالة الحروف على المعاني القرآنية

يقول علماء اللغة بأن للأشياء مراتب من حيث الأهمية، منها ما يرجعونه إلى الخط والكتابة، ومنها العبارة والأذهان والأعيان. فهي مرتبطة بعضها ببعض حيث أن كل سابق منها وسيلة إلى اللاحق. جاء عن صاحب المفتاح قوله: (اعلم أن للأشياء وجوها في أربع مراتب في الكتابة والعبارة والأذهان والأعيان كل سابق منها وسيلة إلى اللاحق)[7] فالكتابة وسيلة لشرح ما يدور في الأذهان، كما قال طنطاوي جوهري: (إن للموجودات من حيث مراتب وجودها أربع درجات: فلها في ذاتها وجود، ولها في الأذهان وجود آخر ، وينوب عن الثاني وجود في اللسان ، وينوب عن هذا الأخير الوجود القلمي)[8]. فالخط دلالة على الألفاظ وهذه على ما في الأذهان وتلك على من في الأعيان. قال تعالى: { قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض }[9] يقول طنطاوي رحمه الله: (فالذي في السماوات والأرض من هذه العوالم هي التي في العيان لأنها موجودة في أنفسها، فإذا نظرته وفكرت فيه فهذا هو ثاني الوجودين، وهو الوجود في الأذهان، وينوب عن الثاني النائب عن الأول الوجود اللساني بأن يصور الإنسان بأعضاء فمه من الصوت أشكالا ويصوغها ببيانه ، فهذا هو الوجود اللساني، ولكن لما كان اللسان لا عمل له إلا بالهواء والهواء سريع الزوال اعتيض عنه بما يبقى على مدى الزمان)[10]. فإظهار المعلومات وبيانها للناس يكون باللسان أولا والخط ثانيا باعتباره نائبا عنه، والحروف هي قطب الرحى

الذي يدور عليه معنى القرآن، وهناك من اهتم بها بالتأليف كابن سعدان صاحب كتاب "حروف القرآن "[11].

اختلاف أحوال الكلمة القرآنية في الخط بسبب اختلاف أحوال معانيها

في هذه الفقرة يمكن لنا أن نبين دور الخط العربي في ترقية الرسم القرآني من خلال بعض الكلمات القرآنية وفق قواعد الرسم الاصطلاحي، انطلاقا مما بينه العلماء، مع التركيز على نماذج من ذلك، وقد اعتمدنا في الغالب على ما جاء عن ابن البناء في كتابه: " عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل " . ذلك لأنه من المتأخرين القائلين بتوقيفية الرسم القرآني، ومن الذين أشاروا إلى أهم الفروق بين الرسم الاصطلاحي والقياسي إذ يقول عن الرسم الاصطلاحي الذي كان مغايرا للقياس في اللغة العربية: (ليس وليد اتفاق ومصادفة، بل هو نتيجة تحقق ودراية)[12]. ففي مضمون كتابه ما يدل على تصورنا لقضية تأثير الخط العربي على المعاني في كثير من الكلمات القرآنية، كما عبر عن ذلك الدكتور نذير حمادو بقوله: (ثم جاء أبو العباس المراكشي الشهير بابن البناء (ت 721هـ)، فألف كتابا عجيبا سماه " عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل " بيَّن فيه أن هذه الأحرف إنما اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها)[13]، إن موضع تأثير الخط العربي في هذا المجال يكمن في التعبير عن معاني الكلمات القرآنية بما قعَّد له الصحابة من القواعد ليفرقوا بين رسم القرآن ورسم غيره، بحيث لا يدرك فحواه إلا من امتلك مفاتيح هذا الرسم وقواعده. وكانت له القدرة الكافية في مجال الضبط والتحري، والدقة التامة في وضع الحروف، كل حرف في مكانه المناسب، باستعمال الحذف والإثبات، الوصل والفصل، والإبدال، وما هو معروف بقواعد الرسم الاصطلاحي (لمعنى موجود ومحقق)[14]. فالمتأمل في الرسم الاصطلاحي يرى العجب، إذ يلاحظ أن كلمة (القرآن) مثلا، رسمت مرات بألف بعد الهمزة، ومرات بدون

ألف. ومِثل ذلك كلمة (الكتاب). ونظائر ذلك مثل"الأصوات" و"الأموات" وغيرها من الأسماء والصفات، تبايُن في الكلمة الواحدة بالحذف والزيادة والإبدال ونحوه ورد إلينا متواترا، صنفت له الكتب، وألفت فيه المتون، وشرحه المتقدمون والمتأخرون من علماء الرسم القرآني إلا أنه لم يكن يظهر لنا وجه الإعجاز من خلال ذلك لأننا لم نكن ننتبه لقضية هامة وهي تحديد العدد في القرآن سواء في كلماته أم حروفه أو آياته، فعدد من الآيات والكلمات والحروف في ظاهره محدود، قال تعالى: { الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }[15] ، لكنه في الواقع العملي لم يكن تحديده بالأمر الهين بحيث إذا سئلت عن عدد الآيات فإنك تطلب التحديد: وفق المكي أو المدني الأول أو المدني الثاني أو الكوفي أو البصري أو الشامي لتحدد الجزء الزائد على الستة آلاف ومأْئتي آية لكل مصر، فالعملية لم تضبط بانتهاء عدد متفق عليه عند الجميع! ومثله على غرار عدد كلماته، بالرغم من ضبطها تلاوة وإحصائها كتابة ورسما من قبل كتَّاب الوحي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ونحن نتكلم عن الرسم العثماني أي ضبط الكلمة بحروفها ووضع كل حرف موضعه دون زيادة أو نقصان، فإنك لو سئلت عن عدد حروف القرآن لأجبت بأن المتفق عليه (ثلثمأْئة ألف حرف)[16] . أما الكسر الزائد والمختلف فيه فبالآلاف، وإذا سئلت عن كيفية ضبط الصحابة لهذا الكسر الزائد في رسمهم للقرآن رسما نهائيا مضبوطا بين دفتي مصاحف معدودة لا تتعدى الثمانية نسخ، فهذا عين الإعجاز، ولن ندرك ذلك إلا إذا اطلعنا على طريقة تقعيدهم ونظرتهم إلى استعمال الحروف في الكلمة القرآنية باعتبارها وسائل تخدم التعبير القرآني سواء من حيث دورها في إبراز المعنى القرآني للكلمة، أم إدراك تفصيل هذا المعنى المتعلق بالوجود المطلق في عالم الملك والملكوت، ومن حيث تنظيم النطق السليم بإعطاء الكلمة القرآنية حقها

ومستحقها من مخارج وصفات، وتركيزهم في الحذف والإبدال والزيادة في الغالب على حروف المد الثلاثة، باعتبارها مفاتيح لمعاني الكلمة القرآنية، لا باعتبارها وظيفة للمد بالصوت طولا وقصرا، وقد اتضح عندهم أن الألف عندهم هي الفاتحة لكونها دلالة على الفتح الذي من خلاله يُرى الفعلُ مفصلا، ولكونها أول الحروف، حيث قيل: (والألف تدل على الكون بالفعل في الوجود فهي مفصلة لأنها من حيث إنها أول الحروف في الفصل الذي بين ما يسمع وما لا يسمع متصلة بهمزة الابتداء)[17]. وأن الواو عندهم تتصف بالجمع ذلك أن من صفاتها الرفع والضم، فكل ما يُرفع يُضم بواسطتها ويُجمع، فهي جامعة، ألا ترى السماوات حين رفعها الله تبارك وتعالى فكأنها ضمت الكون كله وجمعته بينها وبين الأرض، فهكذا الواو عندهم جامعة (والواو تدل على الظهور والارتفاع والارتقاء فهي جامعة لأنها عن غلظ الصوت وارتفاعه بالشفة معا إلى أبعد رتبة في الظهور)[18]. وأن الياء تتصف بالتخصيص، لأنهم استعملوها للإشارة إلى ذلك في مقابل الجمع، وإلى التخفيض في مقابل الرفع، والخفض لا يكون إلا بعد الفتح والرفع، فأصبحت تخصص ما يمكن خفضه بعد الرفع (و الياء تدل على البطون فهي مخصصة)[19]. فراحوا يرسمون الكلمة القرآنية على أساس هذه المعاني للحروف وخصائصها الملكية والملكوتية، بنظرتهم للألف باعتبارها مفصلة، والواو لأنها جامعة، والياء لأنها مخصصة، ولذلك تزاد هذه الحروف لبيان معانيها وظهورها، وتحذف لبطونها وخفائها، وإن كانت هذه التسمية استنتاج من علماء الرسم، فإن مدلولها يفصح عن نفسه وينطق بحاله عما يعبر عنه، فجاء رسمهم عملية فكرية عقلية بعيدة النظر لدرجة الإعجاز. مخالفا للقياس في عرف الخط العربي، بقواعد وضوابط تتماشى مع مراد الله في كلماته، كيف لا وهم أفهم خلق الله لكتابه بعد نبيه عليه الصلاة والسلام , وأصدقهم تعبيرا له، وأدراهم به شكلا ومضمونا.

دور الخط العربي في زيادة حروف المد في القرآن.

للصحابة رضوان الله عليهم قواعد خاصة بزيادة الحرف في الكلمة القرآنية تبعا لمعانيها خاصة حروف المد الثلاثة التي هي الألف والواو والياء، ومثل ذلك في نقصانها.

أ . قاعدة زيادة الألف

تزاد الألف في الخط وتوضع فوقها دائرة صغيرة تسمى في عرف علماء الرسم دارة المزيد، لكي لا يلفظها قارئ القرآن، وتكون الزيادة في أول الكلمة وفي وسطها، وفي آخرها، كما توضحه الأمثلة في الألفاظ التالية :

1 . زيادة الألف في أول الكلمة القرآنية

تزاد الألف في أول الكلمة إذا كان في الكلمة معنى زائدا في الوجود بالنسبة للمعنى الموجود في الكلمة التي قبلها، أي أنه إذا اجتمع فعلان في آية واحدة، وكان المعنى في الثاني أقوى ممن هو في الأول، زيدت فيه الألف تنبيها على هذه القوة الزائدة. ويتضح هذا المعنى بالأمثلة التي تناولها علماء الرسم في هذا المجال مبينة في الأمثلة التالية: لَأَ اْذْبَحَنَّهُ، ولأأوضعوا، لإِاْلَى كالتالي:

كلمة: لَأاَ۠ذْبَحَنَّهُ

ورد لفظ " لأذبحنَّه " في سورة النمل على لسان نبي الله سليمان حين ما كان يتفقد الطير، في قوله تعالى : { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ

}[20]. فهي كلمة واحدة في القرآن كتبها الصحابة بألف بعد الهمزة، مع الإشارة إلى أن هذه الألف زيدت في بداية الكلمة وليست في وسطها كما هو ظاهر، ذلك أن اللام في حكم المنفصل، جاءت تلك الصيغة بعد كلمة (لأعذبنَّه) وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى تعليلها في تفسيره بقوله: " فلا أراهم كتبوا ألفا بعد اللام ألف فيما كتبوها فيه إلا لمقصد، ثم قال : ولعلهم أرادوا التنبيه على أن الهمزة مفتوحة"[21]. أما ابن البناء فإنه يطبق القاعدة السابقة ويرى أن الذّبح أقوى من العذاب، فالألف الزائدة هنا للدلالة على أن الفعل الثاني في الآية القرآنية الذي هو الذبح أقوى وأشد من الفعل الأول الذي هو التعذيب. وهو ما نرجحه مقارنة بما جاء في قول بعضهم للدلالة على التنبيه بأن الهمزة قبله مفتوحة، وعلى العموم وضع الألف بهذا الشكل صار محلا للتوجيه والاحتمال، ولم تضبط حقيقته، فيبقى التوجيه فيه مفتوحا، وما ذلك إلا دلالة على الإعجاز في مثل هذه الحالات من الرسم القرآني.

كلمة: لأَوْضعوا

نفس الأمر بالنسبة لزيادة الألف في لفظ (لأوضعوا) من قوله تعالى : { ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ } [22]، اختلف علماء الرسم في الزيادة وعدمها فمنهم من أشار إلى ضرورة زيادة الألف، تنبيها على أن المؤخر أشدّ وأثقل في الوجود من المقدّم عليه لفظا، وهو رأي ابن البناء إذ قال فيما معناه: الإيضاع أشدّ فسادا من زيادة الخبال لذلك ظهرت الألف في الخط لظهور القسمين في العلم[23]، أما الذي يرى أن الخبال أشد من الإيضاع لم يكتب الألف، وصوبه الراجي بقوله: (وهو الصواب لأن في نظر أهل المدينة الخبال أقوى من الإيضاع ومن كان عنده الخبال باعتباره النميمة ومحاولة شق صفوف جماعة المسلمين بينما الإيضاع نميمة فقط ... فإذا الفعل الأول أقوى بكثير من الفعل الثاني، ولذلك

ليس فيه ألف)[24] وهي قاعدة شاملة هامة واضحة من خلال النظر في درجة الأفعال. ويُعرّف بأن الاعتبار فيها هو من جهة زيادة المعنى في الوجود (يكون باعتبار معنى زائد بالنسبة إلى ما قبله في الوجود)[25]، فهي ميكانيزمات تبدو ظاهرة في بساطتها، لكنها في الحقيقة تعبير على قدرة الصحابة لبيان المعنى من خلال المبنى ومقارنة الأفعال في تفاوت درجات قوتها، وما ذلك إلا ضرب من الإعجاز إذ لا يمكن لغيرهم أن يصل إلى ما وصلوا إليه.

كلمة: لإلْى

تزاد الألف بين الهمزة واللام من كلمة "**إلى**" مع اختلاف بين المصاحف منهم من يزيدها ومنهم من لا يزيدها وهي حرفان في القرآن الكريم هما:

الأول في سورة الصّافات في قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ **لَإِلَى** الْجَحِيمِ }[26].

والثاني في سورة آل عمران في قوله تعالى { وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ **لَإِلَى** الله تُحْشَرُونَ }[27].

فزيادة الألف في الأولى دلالة على أن مرجعهم إلى الجحيم أشدّ من أكل الزَّقوم وشرب الحميم، وفي الثانية دلالة على أن محشرهم إلى الله أشدّ عليهم من قتلهم في الدنيا. وبما أن القسمين المذكورين مستورين عنا أي في علم الغيب تُرك أمر الزيادة لأهل الألباب، فمن رأى هذا الفرق في الشدة بين القسمين زاد الألف بين العبارتين، ومن لم ير ذلك بحيث لم يستو القسمان في العلم بهما عنده لم يثبت الألف في الخط وهو ما عليه قراءة نافع وقد علق ابن البناء على ذلك بقوله (أما اختلاف المصاحف في الحرفين من هذا النوع وهما **لَإِلَى** من قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ **لَإِلَى** الْجَحِيمِ}، وقوله تعالى { وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ **لَإِلَى** الله تُحْشَرُون } . فمن رأى أن مرجعهم إلى الجحيم أشد من أكل الزقوم وشرب الحميم ، وأن محشرهم إلى الله أشد عليهم من موتهم أو قتلهم في

الدنيا أثبت الألف، ومن لم ير ذلك لأنه غيب عنا فلم يستو القسمان في العلم بهما لم يثبته وهو أولى)[28]. وكأن القاعدة عامة بحيث إذا زيدت الألف في بداية الكلمة فإنما ذلك لاعتبار معنى زائد بالنسبة إلى ما قبله ، بمعنى آخر أنه إذا اجتمع فعلان في آية واحدة وكان الفعل الثاني أقوى وأشد من الأول زيدت فيه الألف تنبيها على هذه الحالة. ولله در الصحابة في بعد نظرهم لم يشيروا إلى المعنى بواسطة الخط فحسب، بل تركوا فسحة تناسب التدبر والتأمل من قبل الكاتب للكلمة القرآنية بحيث يمكن له الخيار في وضع الألف وعدم وضعه، تماشيا مع قدرته على إدراكه لمعاني تلك الكلمة فإن تبين له أن مرجعهم إلى الجحيم أقوى وأشد وضع الألف، وإن تبين له العكس تركه محذوفا.

2 . زيادة الألف في وسط الكلمة

تضاف الألف في وسط الكلمة إشارة إلى أن للكلمة معنى ظاهر في الفهم من بين معان أخرى غير ظاهرة نحو (مئة ومئتين جيء ولشيء وملإيه)[29].

لفظ: مائة، ومائتين

ففي مائة نحو قوله تعالى: { وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ }[30]. وفي مائتين في قوله تعالى: { فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ }[31]. بينما لا تزاد في فئة من قوله تعالى { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ} [32] بالرغم من كونها لها نفس الهيئة مع نظيرتها "مائة ". فزيادة الألف في مائة لأنه كما قال ابن البناء "اسم اشتمل في الوجود على كثرة مفصلة بمرتبتين آحاد وعشرات أمثال الذي هو تضعيف الواحد عشرة أمثال إذا علم ذلك بالفعل في الوجود وكان حقا لاشك فيه . فالمائة أضعاف الأضعاف للواحد ففيها تفصيل الأضعاف مرتين، لذلك زيدت الألف في مائتين أيضا تنبيها على المرتبتين في

الأضعاف ... وليس زيادة الألف في مائة للفرق بينها وبين (منه) كما قال بعضهم، لأنه ينعكس بالمائتين إذ لا التباس في ذلك ". فاستعملت الألف هنا للتفصيل في الكثرة .

لفظ: جِيءَ

زيدت الألف بين الجيم والياء في لفظ "**جيء**" في قوله تعالى: { وَجِـأْيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ }[33]، وقد عبر عن ذلك القول (زيدت الألف هنا دلالة على أن هذا المجيء له صفة من الظهور يتميز بها عن المجيء العادي ... فيستوي في العلم ملكها وملكوتها في ذلك المجيء، وجيء يومئذ بزيادة ألف بين الجيم والياء كما في مصحف الأندلسيين معولين على المدني العام فيما رواه نافع وكتبوه بالياء)[34]. ويستدل على ذلك قوله تعالى: { وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى}[35] وقوله تعالى: { إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً}[36] فهو على خلاف حال: { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون }[37] فإن هذا على معنى معروف المثل سواء في الدنيا أم الآخرة. وكذلك من تأول بمعنى الظهور في المحشر لعظيم حساب الخلق أثبت الألف فيها.

ذلك هو عمل الصحابة في رسمهم للقرآن رسما خاصا، رسما توجيهيا، كل كلمة يشير سهمها إلى ذلك المعنى العميق الذي يكمن وراء العبارة، كل ذلك بواسطة استعمال قواعد الخط العربي وتطويرها، رسما لا يساعد على كتابة القرآن فحسب، بل يساعد على فهمه كذلك. وقد عبر الأستاذ عبد الرحمن خليف عن هذا البعد النظري للصحابة بقوله: (وكم لهم رضي الله عنهم من تصرف سديد وعجيب يدل على طريقتهم في مخالفة القياس مبنية على التنبيه على شيء له اعتبار وجيه)[38].

لفظ: لِشَيْءٍ

جاء لفظ (لشيء) في قوله تعالى: { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّه }[39]، فالشيء هنا غير محدد ولكنه يعرف من تصور مثله الذي قد يقع في الوجود، لذلك فيه تفصيل بحيث أن الذي يعرف به معدوم من جهة تقدير الوجود، وقد أشار له بقوله: موجود في الأذهان حقا معدوم في الأعيان حقا. ولأجل هذا الانقسام زيدت الألف تنبيها على اعتبار المعدوم من جهة تقدير الوجود، بينما إذا نظرنا إلى مثله في لفظ (لشيء) في قوله تعالى: { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }[40]، فالشيء هنا ليس له أقسام في أذهاننا ذلك أنه من جهة قول الله له كن، لا نعلم كيف ذلك، فنؤمن بالمعنى تسليما لله فيه لأنه سبحانه وتعالى علم الأشياء بعلمه.

لفظ: ملائه

قوله تعالى: { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ فَظَلَمُواْ بِهَا }[41] زيدت الألف بين اللام والهمزة تنبيها على تفصيل في هذا الملأ ظاهر في الوجود.

3 . زيادة الألف في آخر الكلمة

إذا زيدت الألف في آخر الكلمة فإن ذلك يعني أن هناك معنى زائدا خارج الكلمة، ويتضح ذلك في نحو كلمة أولواْ من قوله تعالى { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَاب} [42] . وقوله تعالى { أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ }[43]. وفي كلمة ملاقواْ من قوله تعالى { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ }[44]. وفي كلمة تفتؤاْ ، من قوله تعالى { قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَؤاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ }[45]. استعملت الألف للتفصيل الخارجي.

ب . قاعدة زيادة الواو

هذا بالنسبة للألف، ومثل ذلك الواو، فإنها تزاد في كلمات مخصوصة إما دلالة على ظهور معنى الكلمة في أعظم رتبة ويتضح ذلك في نحو كلمة: "**سأوريكم**" من قوله تعالى: { **سَأُوْرِيكُمْ** دَارَ الْفَاسِقِين }[46]، وقوله تعالى : { **سَأُوْرِيكُمْ** آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ }[47] . فزيادة الواو هنا دلالة على ظهور ذلك للعيان ظهورا كاملا، بل أكمل ما يكون. ويدل على هذا أن الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد. وإما لقوة المعنى وعلوه في الوجود مثل ما هو الحال في كلمة: "**أولي**"، و"**أولئك**"، فكلمة **أولي** معناه (الصحبة وزيادة التمليك والولاية عليه)[48] وكلمة "**أوْلئك**"، و"**أوْلئكم**" جمع مبهم يظهر منه معنى الكثرة الحاضرة، وإن كان بعضهم قال عن هذه الواو هي للفرق بينه وبين "**إليك**". وذكر تعليله بالضبط على حد تعبيره (أن هناك صورا في الرسم القياسي مماثلة لهذه الصورة تماما من حيث زيادة حرف في الكلمة تنزيلا له منزلة الشكلة، ومن بين تلك الصور كلمة " أولئك " فإن الواو فيها مزيدة خطا لا لفظا، وما وقعت زيادتها إلا على تنزيلها منزلة الضمة من قبل ابتكار شكلة الحروف إذ كان من الجائز أن تلتبس في بعض التراكيب بكلمة " إليك " لو لم يقع التنبيه على ضم همزة " أولئك " بالواو المزيدة في الخط)[49]، وهو قول مردود بـ "**أولاء**". فالقضية ليست قضية توجيه من أجل الشكل، وإنما من أجل ارتباط المعنى بالمبنى .

ج . قاعدة زيادة الياء

يجري للياء في الزيادة مثلما جرى للألف والواو بالنسبة للزيادة نحو كلمة: "**بأييد**"، من قوله تعالى : {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا **بِأَيْيدٍ** وَإِنَّا لَمُوسِعُون}[50]، الأصل في الكتابة أن يتطابق فيها الخط واللفظ، ولكن هنا خرج الصحابة عن الأصل تنبيها للقارئ على غرض ذي صلة بالمبنى لتحديد المعنى، لأن الأيد في الآية

مصدر لامه دال، فزادوا ياء لتوضيح المراد من اللفظ، حتى لا يتوهم أنه جمع ليد الذي لامه واو، فكانت الزيادة إشارة إلى معنى مترتب على مبنى فالياء مخصصة للفرق بين الأيد التي هي قوة الخالق جل جلاله، وبين أيدي جمع يد، ولا شك أن القوة التي بنى الله بها السماء هي أحق بالثبوت من الأيدي لذلك زيدت الياء لبيان ذلك لاختصاص. ونختم قائلين بأن ظهور الخط العربي في الجزيرة العربية على وجه التحديد، وتطوره كان منشؤه نزول القرآن، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حاجة إلى تدوين كل ما نزل عليه، تبعه في ذلك حاجة كتّاب الوحي إلى الاهتمام بالخط لكتابة القرآن ورسمه كما استعان النبي صلى الله عليه وسلم بالأسْرى من أهل الكتاب الذين لهم خبرة بالخط وبالقراءة، فبدأ رسم القرآن الكريم بشكل ضعيف من حيث الجودة في الكتابة، ثم مع تطوير الخط لدرجة أنه أصبح من مميزات الزخرفة الإسلامية، وبمعرفته وإتقانه أصبح عاملا من عوامل التأريخ للآثارات الفنية، حينها تطور معه الرسم القرآني بشكل يدعو إلى الإعجاز الخطي من قبل الصحابة رضوان الله عليهم، خاصة وأنهم اشترطوا في كتابة القرآن أن تكون موافقة لوجه من وجوه النحو في قواعد اللغة العربية، ولا يهم هذا الوجه إن كان مختلفا فيه بين النحاة أو مجمعا عليه كما قال ذلك الفضيلى في كتابه القراءات القرآنية: (فالمعنى به هنا موافقة القراءات للقواعد والآراء النحوية المستقاة من النطق العربي الفصيح)[51]، فسبحان من ألهم الصحابة رضوان الله عليهم إلى هذا الأسلوب الراقي من إثبات وحذف للإشارة إلى أسمى معاني الكلمة القرآنية، ليسهل على قارئ القرآن فهمه فهما عميقا، وما ذلك إلا دلالة على عظمة كتاب الله، وبرهانا على أن المستوى الفكري الرفيع الذي وصل إليه العرب في فهم كتاب ربهم من خلال الخط العربي المرن والمتميز في شكله وجماله والحمد لله على نعمة والقلم الخط والقرآن.

الهوامش

1. الآيات 1، 2، 3 من سورة العلق.
2. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ج/10 ص: 82.
3. جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تأليف المرحوم أحمد الهاشمي، طبعة جديدة ومنقحة، أشرف على تحقيقه لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت . لبنان. ج/2 ص: 333.
4. تطور كتابة المصحف الشريف وطباعته، وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه ونشره وترجمة معانيه، إعدادا لأستاذ الدكتور محمد سالم بن شديد العوفي، الأمين العام لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ص: 39
5. المرجع السابق نفسه
6. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت 1413 . 1992، ج/2 ص : 1339 . وهي قصيدة رائية في علم الخط لأبي الحسن على بن هلال المعروف بابن البواب المتوفى سنة 413 ثلاث عشرة وأربعمائة وصفها الأدباء بغاية البلاغة وقد استقصى فيها أدوات الخط شرحها الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبرى المتوفى سنة 732 اثنتين وثلاثين وسبعمائة .
7. أبجد العلوم الوشي المرقوم، في بيان أحوال العلوم. لصديق بن حسن القنوجي (1248 . 1307) دار الكتب العلمية بيروت 1978، ثلاثة أجزاء، تحقيق عبد الجبار زكار
8. الجواهر في تفسير القرآن الكريم، تأليف الشيخ طنطاوي جوهري، ص : 219 .
9. الآية 101 من سورة يونس.
10. الجواهر في تفسير القرآن الكريم، تأليف الشيخ طنطاوي جوهري، ص: 220 .
11. الفهرست لابن النديم، تحقيق محمد أحمد أحمد، المكتبة التوفيقية، ص: 118 .
12. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ، ص : 15.
13. مجلة منبر الإمام ملك بن أنس، ص: 79.
14. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء، ص: 17 .
15. الآية 1 من سورة هود عليه السلام.

16. عجائب علوم القرآن لابن الجوزي، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور عبد الفتاح عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية: ص: 133
17. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 32
18. المرجع السابق نفسه
19. المرجع السابق نفسه
20. الآية 21 من سورة النمل
21. مجلة الأصالة، ملتقى القرآن الكريم، ج/1 ص: 69
22. الآية 47 من سورة التوبة.
23. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 56.
24. القراءات المتواترة والرسم القرآني، محاضرة التهامي الراجي الهاشمي، ص : 13.
25. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 56
26. الآية 68 من سورة الصافات.
27. الآية 158 من سورة آل عمران.
28. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 56
29. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 62 .
30. الآية 25 من سورة الكهف.
31. الآية 66 من سورة الأنفال.
32. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء ص: 64 .
33. الآية 23 من سورة الفجر.
34. عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل لابن البناء، ص: 56.
35. الآية 36 من سورة النازعات.
36. الآية 12 من سورة الفرقان.
37. الآية 69 من سورة الزمر.
38. مجلة الأصالة، ملتقى القرآن، ج/1 ص: 71
39. الآية 23 من سورة الكهف.
40. الآية 40 من سورة النحل.
41. الآية 103 من سورة الأعراف.
42. الآية 19 من سورة الرعد.

43. الآية 116 من سورة هود.
44. الآية 46 من سورة البقرة .
45. الآية 85 من سورة يوسف.
46. الآية 145 من سورة الاعراف.
47. الآية 37 من سورة الأنبياء.
48. عنوان الدليل لابن البناء، ص : 87 .
49. مجلة الأصالة، ملتقى القرآن، ج/1 ص: 70
50. الآية 47 من سورة الذاريات.
51. القراءات القرآنية تاريخ وتعريف، للدكتور عبد الهادي الفضيلى، دار القلم . بيروت . لبنان، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة، 1980، ص: 56.